الباب الأول

مع الصحابة الكرام

الفصل الأول
ما هي الحاجة إلىٰ تفسير القرآن؟!

قال العلاّمة اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي:

(الفَسْر: الإبانة، وكشف المغطّىٰ، كالتفسير، والفعلُ كضربَ ونَصَرَ، ونظرُ الطبيب إلىٰ الماء، كالتفسرة، أو هي البول، كما يُستدل به علىٰ المرضى، أو هي مولّدة.

ثعلبٌ: (التفسير والتأويل واحد) أو هو كشف المراد عن المُشكل، والتأويل ردُّ أحد المحتملين إلىٰ ما يُطابق الظاهر...)[1].

والدليل الواضح علىٰ أن معنىٰ التفسير هو: الإيضاح والتبيين، قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[2].

وأما تعريف التفسير في الاصطلاح:

فله تعريفات كثيرة، منها ما نسبه الإمام السيوطي إلىٰ المفسّر أبي حيّان الأندلسي (ت: ٧٥٤ هـ) أنه قال: (علم يبحث فيه عن كيفية النُّطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تُحمل عليها حال التركيب، وغير ذلك كمعرفة: النسخ، وسبب النزول، وما به من توضيح المقام كالقصة والمثل)[3].

---

(١) القاموس المحيط: مادة (فسر): ١/ ٦٣٦.
(٢) الفرقان: ٣٣.
(٣) الإتقان: ٢/ ١١٩١.

وأما شرف التفسير:

(فلا يخفىٰ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [1] قال: المعرفة بالقرآن ، ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومقدّمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه ، وأمثاله.

وبالتالي أجمع العلماء علىٰ أن التفسير من فروض الكفايات ، وأجلّ العلوم الثلاثة الشرعية.

قال الأصبهاني: أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن ، بيان ذلك أن شرف الصناعة إما بشرف موضوعها مثل الصياغة ، فإنها أشرف من الدّباغة ، لأن موضوع الصياغة الذهب والفضة ، وهما أشرف من موضوع الدباغة الذي هو جلد الميتة.

وإما بشرف غرضها ، مثل صناعة الطبّ ، فإنها أشرف من صناعة الكناسة ، لأن غرض الطب إفادة الصحة ، وغرض الكناسة تنظيف المستراح.

وإما لشدة الحاجة إليها كالفقه ، فإن الحاجة إليه أشدّ من الحاجة إلىٰ الطب ، إذ ما من واقعة في الكون في أحدٍ من الخلق إلا وهي مفتقرة إلىٰ الفقه ، لأن به انتظام صلاح أحوال الدنيا والدِّين ، بخلاف الطب ، فإنه يحتاج إليه بعض الناس في بعض الأوقات.

إذا عُرف ذلك ، فصناعة التفسير قد حازت الشرف من الجهات الثلاث.

أما من جهة الموضوع: فلأن موضوعه كلام الله تعالىٰ الذي هو ينبوع كل حكمة ، ومعدن كل فضيلة ، فيه نبأ ما قبلكم وخبر

---

(١) البقرة: ٢٦٩

ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، لا يخلق علىٰ كثرة الردّ ، ولا تنقضي عجائبه.

وأما من جهة الغَرَض ، فلأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقىٰ ، والوصول إلىٰ السعادة الحقيقية التي لا تفنىٰ.

وأما من جهة شدّة الحاجة ، فلأن كل كمال ديني أو دنيوي ، عاجليّ أو آجلي ، مفتقر إلىٰ العلوم الشرعية والمعارف الدينية ، وهي متوقفة علىٰ العلم بكتاب الله تعالىٰ)[1].

لكن السؤال المطروح: ما هي الحاجة إلىٰ التفسير؟ خاصةً وأن الله أنزل القرآن الكريم واضحاً بيّناً؟!

يقول الحافظ جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى:

(إن القرآن إنما نزل بلسان عربي في زمن أفصح العرب ، وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه ، أما دقائق باطنه ، فإنما كان يظهر لهم بعد البحث والنظر ، مع سؤالهم النبي ﷺ في الأكثر ، كسؤالهم لما نزل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[2].

فقالوا: وأيّنا لم يظلم نفسه؟!

ففسّره النبي ﷺ ، واستدل عليه بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[3].

وكسؤال عائشة رضي الله عنها عن الحساب ، فقال صلوات الله عليه: «ذلك العرض»[4].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن: ٤/ ١٧١ ـ ١٧٣ (باختصار وتصرف).
(٢) الأنعام: ٨٢.
(٣) لقمان: ١٣.
(٤) صحيح البخاري: رقمه (١٠٣) ، صحيح مسلم: (٢٨٧٦).

وكقصة عديّ بن حاتم في الخيط الأبيض والأسود[1] وغير ذلك ، ممن سألوا عن آحادٍ منه ، ونحن محتاجون إلىٰ ما كانوا يحتاجون إليه وزيادة علىٰ ذلك مما لم يحتاجوا إليه من أحكام الظواهر ، لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغير تعلّم ، فنحن أشد الناس احتياجاً إلىٰ التفسير ، ومعلوم أن تفسيره بعضه يكون من قِبلَ بسْط الألفاظ الوجيزة ، وكشف معانيها ، وبعضه من قِبلَ ترجيح بعض الاحتمالات علىٰ بعض . .)[2] .

إذاً:

لابدّ من تفرّغ بعض العلماء لتقديم تفاسير مناسبة لكل زمان ، حيث يستدلّ الناس من خلالها علىٰ كنوز الحكمة وذخائرها ، لا أن يهتمّ المسلمون فقط بتنميق المصحف وزركشته و . . ما إلىٰ هنالك؟

فالله أنزله وسيلة هداية ، وسبيل تذكر واعتبار ، وطريق فوز ونجاح . . . وهذا هو السرّ وراء تقدّم السلف الصالح ، وهو ذاته السرّ الكامن وراء تخلف الخلق!!

* * *

(١) صحيح البخاري: رقمه (١٨١٧) ، صحيح مسلم: (١٠٩٠).
(٢) الإتقان: ٤/ ١٧٠ ـ ١٧١ .